Research Africa Reviews Vol. 6, No. 1, April 2022

These reviews may be found on the *RA Reviews* website at:
https://sites.duke.edu/researchafrica/ra-reviews/volume-6-issue-1-april-2022/

قراءة في المجموعة القصصية "سلاطين الغلابة لصلاح هاشم"

أ.د عبد الستار رجب-جامعة قرطاج، تونس
Reviewed by : Abdessatar REJEB, Professor, Carthage University, Tunisia

الجزء الأول من القراءة والاستنطاق

مقدمة، في منهج القراءة وأدوات الاستنطاق

كيف نَفْصِل العمل الأدبي عن صاحبه؟ أو كيف نفصله عن سياقاته المتعدّدة والمتداخلة؟ أو كيف نفصل فيه بين الأثر بما هو وقائع فعليّة وبين بناء أدبي تجريبي ينزع إليه المؤلّف ليستكمل به وعبره ما قد يكون عجز زمن الواقع عن أن يستكمل مشاهده، ليأتي تجريب المؤلّف عبر قصصه المنثورة بين دفتي الكتاب استدراكا منه ليجبر عجز الواقع ويسدّ فجوة ما كان قد حصل في زمنه الحقيقي، فينهي المؤلّف بإرادته السردية ما كانت قصرت عنه إرادات أبطال مدونته في الواقع؟

إنّنا لا نبتغي لهذه الأسئلة إجابة بقدر ما نتوسّل بها لنشق لأنفسنا طريقا لاستنطاق نصّ أدبي، سكنت فيه تقنيات كتابة متنوعة وأساليب بناء متعدّدة، وفاح الواقع بتضاريسه المركّبة من خلال فقراته حتى لكأنّك وأنت تقرؤه تراه رسما وصورة، وتشمّ تفاصيله المنبعثة منها رائحة مجتمعات الهامش والقاع بكلّ ما تكتنزه من طهر ونقاء وأصالة، وامتلاء، وأزليّة، وبقاء.

هكذا وجدت نصّ سلاطين الغلابة.. بيان للمستضعفين.. المعذبون في الأرض والمقهورون.. الذين هم ملح الأرض، أولئك الذين احترقوا بملوحتهم ليعطوا الحياة تطهّرا من العفن. ويعلّمونا بما استقرّ لديهم من حكمة اصطنعتها قساوة التجربة ومرارة مكابدتها، خلاصات الوجود الاجتماعي والوجود الحضاري لمجتمعات القاع وحكّامهم.

ضمّ الكتاب بين دفتيه مجموعة أقصوصات، افترش أصحابها سجّاد البساطة. وحملوا في حشايا هذه السجاجيد ما اقتلعوه من بين أنياب الحياة القاطعة. فأنت لا تكاد تراهم إلا وقد حوت أياديهم ما جادت به الأرض من دود أو عقارب. ولا تلمحهم إلا في كتاتيب سريّة أو في خدمة الموتى أو يحملون أثقال الناس على جمال اختاروها من بين دواب الأرض لما تحمله من تشابه في الخصال وتطابق في الأحوال معهم.

الأقصوصة الأولى: البساطة المفروضة بما هي غلابة المحكومين، والسيادة المفقودة بما هي غلابة الحاكمين

تبدأ رحلة الغلابة من النيل وإليه تنتهي.. كيف تتحوّل العادة إلى ما يشبه الأفيون الذي يحجب عن "السقا" حقيقة النظر. كيف لا يقدر على اليقظة من سُكْرٍ بمياه لم يذقها يوما. هو الذي عرف خداع مجرى النهر ولؤم مرساه، ومع ذلك يستمرّ على وهم تصديقه له. لا يفتأ يزوره في اليوم مرّتين، به يفتتح مشواره الدائب على نفس الحال وبه يختمه. من يحمل الماء ليروي عطش الناس، ينتهي أجله ولم ينل من النهر شربته الموعودة. كأنّه كُتب عليه أن يشقى بسعيه على إرواء غيره، ويا ليت

غيره، هم عموم الغلابة؛ لكان خفّف عنه ذلك من بؤس الظمأ. فهؤلاء لم يكونوا أوفر حظّا منه ولم يتجاوزوا بساطة حكاياتهم التي ترقد بين أمل في شربة من قربة السقا وقد تخلّصت من أثر السحر، وبين رهبة من السير على حافة نهر أغرقته حكايات المسحور. هؤلاء، يمرّ ماء النهر من بين أيديهم حتى إذا أرادوا إمساكه وجدوه سرابا بقيعة، وقد كانوا حسبوه من قبل ماء. يمرّ من أمامهم ومن بين أيديهم ليصل إلى غيرهم الذين هو في الفوق الاجتماعي، وربما في الفوق الحضاري. وكلاهما يقع أعلى من فوق البساطة الاجتماعية المحلية ومن فوق السيادة الوطنية. كيف أقام صلاح هاشم هذا التناظر الوجهي بين البساطة والسيادة، محليا ووطنيا وإقليميا. بين الغلابة وهم الأغلبية وبين غير الغلابة الماسكين بقرار توزيع الثروة محليا ووطنيا. الذين بدورهم يتحولون إلى غلابة في مقابل الماسكين بقرار السيادة إقليما ودوليا، باعتبار وجودهم في الفوق الإقليمي.

إنّ مادية النيل ورمزيته محليا ووطنيا وإقليميا هي ما سمح لنا بهذا الاستنطاق. فـ"السيادة" لم تمنع مصر من أن تصير بأكملها غلابة، وأن تتحوّل حبيسة فوقَيْن، فوق من أعلى وفَوْق من أسفل. فوق المنبع الذي هو فوق الأسفل. وفوق ما بعد المصبّ، الذي يذهب إليه مآل الماء وريعه. ليست هذه السيادة سيادة فعلية، بل هي حالة وهمية من الشعور بالسيادة لا تزيد إلا في تعميق التبعية. لتبقى مصر بأثر منها في الأطراف لا تتجاوزها إلى مجال المركز.

الأقصوصة الثانية: في النقد الجذري للتحديث القسري أو آخر حصون مقاومة المجتمع التقليد

هل يتاح لعم "غتاتة" أن يتجاوز قدر "السقا" وهما اللذان جمع بينهما النيل في البؤس؟ أنّى له أن يتجاوز "عم غتاتة" بؤسه وقد قاوم أي إمكان لتغييره أو تغيير حياته؟.. حتى لمّا دخلت الكهرباء القرية بأثر من السدّ العالي رفض أن يتحوّل عن استعمال لمبة الجاز. هو اعتبر هذا موقفا فيه وفاء. وفاته أنّ ذلك قد يكون ربّما "لغتاتة" فيه، وإلاّ لما بقي على حاله البسيط لا يريد أن يفارقه..

ولكن، من زاوية مختلفة ومقابلة، ألا يحتمل أن يكون موقف "عمّ غتاتة" أعمق حكمة وأبلغ دلالة وأمضى أثرا؟.. هل نستطيع أن نرى في موقفه، موقفا ممّا يحصل من تغيّر لم يُستشر فيه. هل يمكن أن نقرأ في سلوكه نقدا جذريا لتحديث القرية القسري على حساب أصولها الحيوية؟ تلك الأصول التي يمثّل طمي النيل أخطرها. الذي بفضله تستدام حقوق الأجيال القادمة وتستمدّ حياة النهر أسبابها.

لقد حاول "عمّ غتاتة" من خلال موقفه أن يحرج خيار تحديث قسري لمجتمع لم تُراعَ مميزاته القيمية والمادية. حيث عمد مدبرو أمره إلى الذهاب في مسالك للتنمية غير متلائمة مع مقتضيات حظوظ الغلابة الذين هم عموم الناس في مصر. لقد أراد "عم غتاتة" بثباته على طبائع عيشه التقليدي أن يسائل من حكموا البلاد حول خياراتهم تلك.. بل نراه قد تجاوز التساؤل إلى تبني موقف مقاومة جذري حين امتنع عن مسايرة نمط العيش الجديد.

لقد مثّل "عم غتاتة" واحدا من حصون مقاومة المجتمع التقليدي البسيط الذي لم يقدر على مجاراة نسق التغيّر الهائل والجارف، والذي سيقت إليه العموم دون مشاركة فعلية منها. لم يكن مطروحا على مجتمعات القاع، القاع الاجتماعي، كما القاع الحضاري، أن تناقش ما يُفرض عليها من خيارات. لذلك لم تكن مقاومته بقادرة على إيقاف مجرى خيار التحديث القسري الذي فرضته الأنظمة المتعاقبة في بلاده. وهي خيارات مبتسرة غير أصيلة، تتعارض مع القيم الرمزية والمادية لمقتضيات الحال المحلّي والوطني. لم يستطع من حكموهم أن يوقفوا اتجاه التحديث. فلقد كانوا في سياق هذا الاتجاه التحديثي

في حكم شركات مناولة. لذلك لن يكونوا بالتبعية قادرين على إيقاف انهيار مقومات السيادة الوطنية. فالسيادة الوطنية تستمدّ قوتها من مقاومة سكان القاع الاجتماعي. ولمّا تنهار أسباب مقاومة القاع أو يصار إلى إنهائها بواقع من الاستبداد والقهر، تنهار بالتبعية أركان مقاومة الدولة القائمة على القهر لأنّها لم تستثمر في الغلابة وفي مجالهم الترابي والرمزي. فالغلابة هم العموم ومجالهم هو الوطن في اتساعه.

لم تسعف موارد "عم غتاتة"، من حمار وبقرة، بقوة كافية ما يمنحه فرصة إقامة توازن مع مفعول الانجراف الحاصل في مختلف منعطفات الحياة وثناياها. إنّك حين تتصفح حكاية "عم غتاتة" تجده قد أُعذر في جهده المقاوم المنبعث من مقومات القاع، التي لا تعدو أن تكون سوى دابتان من الأرض، حمار وبقرة. دابتان لا تقوم بهما مِنْسَأَتُه التي لا تمثّل في سجل أدوات الإنتاج وخلق الثروة شيئا يذكر. إنّ ما خفّف عن "عم غتاتة" وطأة حياته البسيطة الرتيبة الموجعة، التي تحاول الصمود في وجه رياح التغيير العاتية سوى جملة من القيم ارتبط بها وارتبطت به، ومنحته شيئا من القدرة على دسّ بعض المعنى في عيشه حتى يكسبه ما يشبه الطعم المستساغ، لتستمرّ حياته حتى يجيء كتابه. وقد جاءه البشير حين مات حماره. حينها علم أنّ واقعا جديدا يسود، واقع زرع فيه التلفاز في الحقول ليعوّض الشجر والنبات،. واستُبدِلت فيه الأفران التي توفر العيش للغلابة والعموم بالكاسيتات. وكفّ الفلاحون فيه عن زراعة القطن. وصار من يحكم بلادهم يستورد القمح من الأعداء. وهيمنت الآلة حتى صارت هي المعتمدة في كل شيء. حين هيمن هذا التغيير جاء لـ"عمّ غتاتة" البشير بنهاية مشواره مقاومته.. لقد مات حمار "عم غتاتة" ..

وتستمرّ رحلة الغلابة مع النهر، **يتبع ....**

Research Africa
Copyright © 2022 by Research Africa, (research_africa-editor@duke.edu), all rights reserved. RA allows for copy and redistribution of the material in any medium or format, provided that full and accurate credit is given to the author, the date of publication, and the location of the review on the RA website. You may not distribute the modified material. RA reserves the right to withdraw permission for republication of individual reviews at any time and for any specific case. For any other proposed uses, contact RA's Editor-in-Chief. The opinions represented in the reviews and published on the RA Reviews website are not necessarily those held by RA and its Review editorial team.

ISSN 2575-6990